

فنون الشعر

كانت الحياة الأدبية قوية مزدهرة في العصر الفاطمي. واستمر تيار هذه الحياة بعد انقراض هذا العصر الفاطمي بنفس القوة التي كان يسير عليها من قبل، فالتغيير السياسي وزوال دولة وتأسيس أخرى لم يضعف الفن الأدبي في مصر، بل ربما استفاد الأدب من هذا التغيير السياسي فوائده لم يكن ليحققها لو استمر الفاطميون على ما كانوا عليه. وكان كثير من فحول أدباء وشعراء العصر الأيوبي قد شاهدوا أواخر العصر الفاطمي وأسهم كثير منهم في الحياة الأدبية، وعرفوا فنونها واتجاهاتها، فساروا في العصر الأيوبي متأثرين بما كانوا عليه حتى إن مصطلحات العقائد الفاطمية ظلت في شعر المدح والتصوف على نحو ما رأيناه في البحث الأول والثاني من هذا الكتاب.

وكما كان الشعراء الفاطميون يخرجون إلى المتنزهات والبساتين كذلك كان يفعل شعراء الأيوبيين، وكما كان التنافس شديداً بين شعراء العصر السابق، كذلك كان التنافس قويا عنيقا بين شعراء عصرنا هذا، وظهرت في هذا العصر الأيوبي بعض اصطلاحات فنية في تنافس هؤلاء الشعراء، هذه الاصطلاحات هي في حقيقة الأمر قديمة معروفة منذ عهد بعيد ولكن ظهرت في العصر الأيوبي بصورة لافتة، فمثلا كان الشعراء قديما يطلبون من بعضهم بعضا إجازة نصف بيت أو بيت من الشعر أو أكثر لإظهار مهارتهم الفنية أو قل هي لون من ألوان الرياضة الذهنية بين الشعراء.

أما في العصر الأيوبي فقد حدد لذلك مدلولات تعارف عليها الشعراء والنقاد، فقسموا الأجازة مثلا إلى: إجازة شاعر لمعاصره أو إجازة الشاعر لشاعر قديم.

والإجازة كما تعرف قديما هي أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله. فمن ذلك ما رواه علي بن ظافر أنه اجتمع هو والقاضي الأعز أبو الحسن علي بن المؤيد الغساني يوما بالرصد فرأيا شعاع الأصيل فوق بياض الماء فقال ابن ظافر:

أذكت الشمس على الماء لهب

وطلب من الأعز إجازة هذا القصيد فقال:

فكست فضته منها ذهب^(١)

(١) ابن ظافر الأزدي: بدائع البداية ص ٤٠.

ومن ذلك أيضا أن ابن الساعاتى كان فى مجلس سماع عند بعض الرؤساء فغنى مغن قبيح الصوت فقال بعض الحاضرين:

من منصفى ممن إذا ما نأح نأحت لقبح نغمه

وطلب إلى ابن الساعاتى إجازة هذا البيت فقال:

هو خارج وقت الغناء وداخل فى رحم أمه^(١)

ويحدثنا على بن ظافر أيضا أنه قال: بتنا ليلة على المقياس عند مبالغة النيل فى نقصه واحتراقه، وانفراجه عما لم يزل مستورا من أرضه ومفرقه، والمراكب قد انتظمت فى لبتة، وركدت بالإرساء فوق لجته، وأحاطت به إحاطة المحيط بنقطته. وسفهاء الرياح تعبت بها حتى كادت تذهب بوقارها، وأجسادها قد ليست لفقد الماء حداد قارها، وهى فى أوكارها من المراسى مزمومة، وأجنحة قلوها لعارض الليل مضمومة، فقلت بديها:

أو ما ترى المقياس قد حفت به سود المراكب فوق ظهر اللجة
يسمو وقد حفت به كقلادة سبجية فى لبة فضية

واستجزت ابن المؤيد فقال:

وكأنه حصن عليه عسكر للزنج لف بنوده للحملة^(٢)

وهكذا عاد شعراء مصر إلى ما كان عليه الشعراء فى مصر والأقطار العربية الأخرى من هذا اللون من الرياضة الذهنية، وإنشاد أبيات من الشعر على البديه كلما طلب إليهم ذلك. ومن هذه الرياضة لون عرف بالتمليط.

عبّر ابن ظافر عنه بقوله: هو أن يجتمع شاعران فصاعدا على تجريد أفكارهم، وتجريب خواطرهم فى العمل فى معنى واحد^(٣) فمن التمليط ما يكون بين شاعرين، ومنه ما يكون بين شعراء، ومنه ما يكون بقسيم لقسيم، ومنه ما يكون بيت بيت. ومنه ما يكون بيتين لبيتين، والفرق بينه وبين الإجازة أن التمليط يتفق فيه الشعراء قبل العمل، أو يندبون لذلك وتتكرر بينهم المناوبة، وهذه شروط ليست من شروط الإجازة.

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٤.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٦.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٢.

ومن التمليط لون يسمى الماتنة ، وهو ما يقع بين شاعرين بقسيم لقسيم. «والماتنة لغة: المماثلة والمباعدة فى الغاية». ومثال ذلك أن شهاب الدين يعقوب ابن أخت الوزير انفراد يوما ببوصير بالفقيه رضى الدين أبى إسحاق، وكان فى خدمة الوزير نجم الدين، فجلس إليهما غلام من أولاد بعض الرؤساء، فقال الفقيه الرضى:

لله يوم مضى ببوصير

قال الشهاب:

والعيش صفو بغير تكدير

فقال الرضى:

نديمنا فيه شادن غنج

فقال الشهاب:

مكتحل جفنه بتفتير

ويقول ابن ظافر: جلست مع الشهاب يعقوب يوما بالجامع الأنور بالقاهرة لانتظار الجمعة، وكان يجلس بالقرب من مكاننا صبى وضىء نهب وجهه وشعره من البدر نوره، ومن الليل ديجوره، واغتصب طرفه وعطفه من الظبي كحله ومن الغصن ميله ينعت بالشمس، فتأخر حضوره يوما، فتعاطينا القول فى غيبته فقلت: أفدى الذى غاب فغاب السرور

قال الشهاب:

واتسع الهم بضيق الصدور

فقلت:

وأظلم الأنور من بعده

فقال الشهاب:

وليس بعد الشمس للأفق نور^(١)

(١) المرجع السابق: ص ١٠١.

ومن التمليط ما يقع بين شاعرين ببيت لبيت، ويسمى هذا النوع الإنقاذ، مثال ذلك أن اجتمع ابن المنجم الشاعر، وأبو الحسن الذروري، والفقيه الأديب أبو الفضل المنبوذ بطيرى فى منزل الأديب عبد المنعم الجزيرى وجلسوا للحديث فدخل عليهم أبو الربيع سليمان ابن تنين الطجان وذكر أنه رأى رجلا مصلوبا بأعلى الجسر، وطعن بعد صلبه، فاقترح الوجيه الذرورى أن يصنعوا فى هذا شيئا، فاقترح النجم أن يكون الإنقاذ بين أبى الفضل وأبى الربيع، وأن تكون القافية على حرف الذال، فقال أبو الفضل فى الحال:

ومفجع تخذ الجذوع مطية فتقطعت لركوبها أفخاذه
وأطال أبو الربيع التفكير، وافتضح فى تمادى التأهل، فدى إليه ابن المنجم رقعة صغيرة فيها:

وبدا لسن الرمح فيه نفاذة أخنى على أفلاذه فولاذه
وناولها له بحيث فطنت الجماعة وتغافلوا، وخفى الأمر على أبى الفضل طيرى لسوء بصره؛ فقال: بيتى خير من هذا البيت. وأكثر الصياح والجلبة، فقال له ابن الذرورى: دى عنك هذا القول ألسنت القائل فى بيتك «تخذ الجذوع» فهذا صلب على جذع أو مائة، وقلت «أفخاذه» فله فخذان أو عشرة، وأوحى إليه بالقصة؛ فأقصر عن الكلام، ثم التفت ابن الذرورى إلى سليمان الطحان وقال له: قد ثبت اليوم عملك للشعر فانصرف وقد ألزموه بعمل دعوة سرورا بذلك^(١).

وقال القاضى الأعز بن المؤيد: تسأرت أنا والقاضى المخلص أبو العباس أحمد بن عوف بشاطئى خليج الإسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة السوارى، وقد رقصت أشجاره على غناء أطيّاره، وملاً لها ساقى الغمام كؤوس جلناره، فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الأشعار ونتعاطى من كؤوس رحيق الأخبار ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلّت من البدور، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لا تغور إذ بجوارٍ هناك جوار، وبدور من قبل السواد سوار، فقلت:

لله أى بدور من السوار سوارى

فقال المخلص:

من كل هيفاء جرسى الـ
وشاح خرسى السوار

(١) نفس المصدر السابق: ص ١٠٧.

فقلت :

لاحت فحلت وحلت قلبي وعقد اصطباري

فقال :

تنوب فرعا ووجهها عن الدجى والنهار

فقلت :

فناظرها وقلبي ما بين راض وضار

فقال :

وخدها وفؤادي من جلنار ونار

فقلت :

تحكى الغزالة فى بهـ جة وحسن قنار

فقال :

والظبى فى حسن جيد ومقله ونفار^(١)

ومن التمليط ما كان يقع بين ثلاثة من الشعراء مثال ذلك ما ذكره ابن ظافر إذ يقول:
مضيت أنا وشهاب الدين يعقوب والقاضى الأعز بن المؤيد رحمه الله فى جماعة من
أصحابنا إلى الدير المعروف بالقصير إيثارا لنظر تلك الآثار فلما تنزهنا فى حسن منظره
وقضينا الوطر من نظره لتعاطينا القول فيه ، جريا على عادة خلعاء البلغاء وظرفاء الأدباء
ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء فقطعوا طريق الأعمار بطريق الأغمار وضيعوا العين
والعقار فى تحصيل العين والعقار، فقال الشهاب:

سقى الله يومى بدير القصير قصير العزالى طويل الذبول

محل إذا لاح لى لم أقف بصحبي على حومل فالدخول

فقلت :

فكم فيه من قمر فى دجى على غصن فى كثيب مهيل

بلحظ صحيح وجفن سقيم وروح خفيف وردف ثقیل

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٨.

فقال الأعز:

قطعت به العيش مع فتية
بكل كريم قصير المراء

فقال الشهاب:

أذاقه سل سيف المدام
فقال الأعز:

وكم من خليع كريم الفعال
فقلت:

يوافيه ذا ذهب جامد
ثم صنع الشهاب فيه على غير هذا الروى والوزن فقال:

على عمر القصير قصرت عمري
فقال الأعز:

ولم أسمع لعمري قول زيد
فقلت:

ظفرنا فيه من شفة وكأس
فقال الشهاب:

ودافعنا يقين الدين فيه
فقال الأعز:

كسوت به الكئوس البيض حمرا
فقلت:

وظلت بمارق للهو أتلو
بهز البيض فيه عناق سمر^(١)

كانت هذه الرياضة الذهنية من عوامل رقى فن الشعر فى ذلك العصر فمحاولة كل شاعر أن يثبت مقدرته على هذه الألوان واجتماع الشعراء فى زيارة أماكن النزهة والتمتع

(١) المرجع السابق ص ١٢٢.

بجمال الطبيعة ، ومطالبة بعضهم بعضا فى أن ينشدوا فى موضوع بعينه كان ولا شك له أثره فى هذه النهضة الفنية التى نراها فى عصر الأيوبيين بالرغم مما ذكرناه من أن هذه الرياضة كانت معروفة عند شعراء العرب فى غير مصر وفى غير هذا العصر. أسهم شعراء الأيوبيين فى الموضوعات التى عرفها الشعر العربى منذ أقدم عصوره من مدح وهجاء وغزل وخمريات إلى غير ذلك من موضوعات الشعر، ولكننا نرى فى هذا العصر بعض الفنون التى أعتبرها جديدة كل الجدة فى الأدب العربى، إذ لم يعرض لها شعراء العرب ولم تظهر إلا فى عصرنا هذا، وقد ذكرنا فى حديث سابق من هذا الكتاب أن الحشيشيات ظهرت لأول مرة فى العصر الأيوبي، وهو فن جديد لم يطرقه الشعراء من قبل، كما تحدثنا عن الشعور بالوحدة الإسلامية، وكان حديث الشعراء فى هذا العصر جديدا أيضا، وهو أثر من آثار فكرة نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي فى توحيد البلاد الإسلامية وحدة تجعل المسلمين قوة أمام أعدائهم المستعمرين.

ونستطيع الآن أن نضيف إلى هذه الفنون الجديدة فنا آخر هو أثر من ظهور عنصر الأتراك فى بلادنا المصرية، فأول ما نراه من ذلك الإشادة بعنصر الأتراك وقوة الترك وأنهم استطاعوا أن يهزموا كل من يقف فى طريقهم ففى قصيدة لابن سناء الملك يقول:

بدولة الترك عزت ملة العرب	وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
ويقول العماد الأصفهاني فى قصيدة له:	
لن تله عن باقى البلاد وإنما	ألهاك فرض الغزو عن همدان
لروم والإفرنج منك مصائب	بالتترك والأكراد والعربان
ويقول ابن المجاور:	

جاءت جنود الله تطلب ثأرها	وصدورها عما قليل تشتفى
فانهض بها وتقاض حقدك موقنا	أن الإله بما تؤمله حفى
هم فتية الأتراك كل مجفجف	يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة	لا ينظرون إليه من طرف خفى
إن صبحوا الأعداء فى أوطانهم	تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا	لله درُّ المصطفى والمصطفى

ويقول النظام المصرى فى شجاعة الترك :

ومن ذا يطيق الترك فى الحرب إنهم
حماة كماء كالضراغم، خيلهم

ويقول ابن النبيه :

إياك والأتراك إن لبعضهم

فن الغزل

وكما مدح شعراء مصر الأتراك فقد تغزلوا بهم ومن العجيب أن شعراء مصر خالفوا شعراء العرب فى الغزل بالعيون الواسعة التى تشبه عيون البقر الوحشى أو عيون الجآزر، وتغزلوا بعيون الأتراك الضيقة فالشاعر ابن النبيه يقول :

سواى فى سلوانه يطمع
أوضحتم الرشد فمن يهتدى
بى ضيق العين وإن أطنبوا
فعلنفوا إن شئتموا أو دعوا
وقلتم الحق فمن يسمع
فى الحدق النجل وإن أوسعوا^(١)

فالشاعر هنا يتحدث عن محبوبه ذى العيون الضيقة بالرغم من حديث الشعراء السابقين وأطنابهم فى وصف الحدث النجل والعيون الواسعة. فهو لا يرضى إلا بالعيون الضيقة عيون الأتراك، وهو يكرر هذا المعنى فى أشعاره ويكثر من ذكر هذه العيون الضيقة ثم نراه يصطنع فى شعره هذا المعنى الذى لا يزال يجرى بين المصريين إلى الآن حتى ذهب مذهب المثل وهو أن «ضيق العين دليل البخل» فابن النبيه يقول مثلاً :

أمانا أيها القمر المظل
يزيد جمال وجهك كل يوم
وما عرف السقام طريق جسمى
فمن جفنيك أسياف تسل
ولى جسد يذوب ويضمحل
ولكن دل من أهوى يبدل
صدقتم إن ضيق العين بخل^(٢)
يميل بطرفه التركى عنى

فالشاعر يتغزل بعيون الأتراك الضيقة فإذا صد عنه محبوبه تذكر ما يجرى على ألسنة الناس من أن ضيق العين تدل على البخل. ويعود ابن النبيه مرة أخرى إلى التحدث عن العيون الضيقة وما تدل عليه من البخل فيقول :

(١) الديوان ص ١٧.

(٢) الديوان ص ٤٣.

كل قلب عليه كالصخر قاسى
ررق قلبى توقد الأنفاس
بفؤادى تذكاره وهو ناسى
ب سهل الخداع صعب المراس
مل فإن جاد كان ضد القياس^(١)

شقيقا حف بالسوسن
من الأسقام لو أمكن
ن يحكى الرشا الأعين
فما أقسى وما أليين^(٢)

فما شهرت إلا لتؤذن بالفتك

وهكذا كان التغزل بالأترك وبالعيون التركية الضيقة من موضوعات الشعر فى هذا العصر، وجاء الشعراء بعد العصر الذى ندرسه فأكثرُوا من الحديث عن العيون الضيقة، فقد فتح شعراء العصر الأيوبى هذا الباب لمن جاء بعدهم، حتى خيل إلينا أن شعراء مصر فى عصر المماليك والعثمانيين نسوا العيون الواسعة، أو أنهم لم يتذكروا ما جاء فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى من تشبيهات واستعارات وكنائيات الشعراء عن العيون، ولكن لكل عصر فتنته وبدعته.

ليس معنى ذلك أن شعراء العصر الأيوبى لم يذكروا فى غزلهم العيون الواسعة، فإنهم تحدثوا عنها فى غزلهم، وكان غزلهم هو استمرار للغزل الذى كان فى العصر الفاطمى غير أن غزل العصر الفاطمى كان متأثرا بالترف الفاطمى بينما كان غزل الأيوبيين فى أكثره عفيفا ليس به الفحش الذى كان فى العصر السابق، حقيقة وجد فى عصرنا مثل ابن المرصص المتوفى سنة ٦٣٨ هـ الذى كان يقول:

تنقل فلذات الهوى فى التنقل ورد كل صاف لا تقف عند منهل

ويح قلب المحب ماذا يقاسى
يا جفونى أين الدموع فقد أحد
جد وجدى فى حب لاه وأودى
من بنى الترك لين العطف قاسى القلب
ضيق العين وهى من صفة البخ
ويتغزل بالترك مرة أخرى فيقول:

تعالى الله ما أحسن
خود لثمها يبرى
غزال ضيق الأجفا
له قلب وأعطف
ويتغزل ابن مطروح بأعين الترك فيقول:

حذار سيوف الهند من أعين الترك

(١) شرحه ص ٤٠.

(٢) الديوان ص ٧.

ولا ترسلن دمعاً على مترحل
ولا تجعل المحبوب عنك بمعزل
فول من الأحباب من شئت واعزل
فآخر حب ناسخ حكم أول
ضل من ذا يهتدى بمضلل
ولا دار إلا وهى دارة جلجل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل^(١)

وإن سار من تهوى فسر عن غرامه
ولا تسكنن الوجد فى دار غربه
وكن أمرا إن كان لا بد من هوى
حديث الهوى مثل الحديث حقيقة
ولا تسمعن قول امرئ القيس الم
فلا خدر إلا وهو خدر عنيزة
وفى الأرض أحباب وفيها منازل

فالشاعر هنا يتهكم بهؤلاء الذين يتخذون محبوبية واحدة ويبكون إذا رحلت عنهم، فعلى الرجل أن يكون حاكماً على قلبه يحب من يشاء ويهجر من يشاء، ثم يتهكم بامرئ القيس الذى جعل غزله وقفاً على عنيزة، ووقف باكياً على دارة جلجل، فإن من مبادئ شاعرنا المصرى أن ينتقل فى الهوى، ومهما يكن من الأمر فإن شعراء مصر جميعاً أنشدوا فى الغزل حتى هؤلاء الذين عرفوا بالتزام الوقار فى حياتهم الخاصة وبعثوا عن مجالس اللهو أمثال القاضى الفاضل، إذ لم يكن يتظاهر بما كان يتظاهر به أصحاب الدواوين فى عصره من الميل إلى الغلمان ومعاقرة بنت الحان، وكان ينكر على أصدقائه ذلك، ويروى للتدليل على ذلك أن السلطان صلاح الدين قال يوماً للقاضى الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد فلعله ضعيف، امض إلى داره وتفقد أحواله. فلما دخل الفاضل دار العماد وجد أشياء أنكرها فى نفسه مثل آثار مجلس أنس وطيب ورائحة خمر وآلات طرب فأنشده.

ما لم ينلك بمكروه من العذل
بأن أراك على شىء من الزلل^(٢)

ما ناصحتك خبايا الود من رجل
محببتى فيك تأبى أن تسامحنى

فهذه القصة تدل على أن القاضى الفاضل لم يكن بالرجل الذى تستهويه النساء أو يتبع الغلمان والسماع، وكان ينكر على أصدقائه ذلك، ومع هذا كله فله غزل بالمذكر مثل قوله:

والعمر فى كلف بكم قضيته
داع وكننت بحضرتى لبّيته

شرح الشباب بحبكم أفنيته
وأنا الذى لو مر بى من نحوكم

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٢٨٠.

(٢) الصفى: الفيث ج ١ ص ٢١٤٣.

حب بأيام الشباب شريكه
يزداد نكسا كلما داووته
قاس على العشاق قلت فدتيه
لا والذي بطحاء مكة بيته
من لذة الذكرى به سميته^(١)

فالقاضي الفاضل في هذه الأبيات يكن حبا دينا لازمه منذ شبابه ولا يستطيع أن يسلو عنه فقد تمكن الحب من قلبه ولم يجد له دواء بالرغم من تجنى محبوبه وقساوته على عاشقه فالقاضي الفاضل يتغزل غزلا بعيدا عن فحش القول أو وصف أعضاء المحبوب، إنما اكتفى بالناحية النفسية لحالته. وتغزل القاضي الفاضل بالموثث مثل قوله:

عهدا لحبك ما حييت
فقد نعمت بما شقيت
بردا لنارك إذ صليت
على هواك وما دعيت
باتت عداك كما أبيت
فجوابه عندي السكوت
ومن الشفيح ترى أتيت
م فقد رميت بما رميت
وطرقه لکن بليت
لكن تؤخره البخوت
لجفا الحبيب كما جفيت
كما أريد ولا أموت
فحديثها ما قد لقيت
فاسلم فإنني قد فنيت
في هواك وما بقيت
ت بأن أموت إن حييت^(٢)

كيف التعرض للسلو وحبكم
لله داء في الفؤاد أجنه
قالوا حبيبك في التجنى مسرف
أروم من كلفى عليه تخلصا
ولو استطعت بكل اسم في الورى

وحياة حبك ما نسيت
وإذا رضيت بما لقيت
ولقد وجدت على الحشا
ولقد تطفل بي الشقاء
لا تسألن عن ليلتي
وإذا تكلم عاذلي
صيرت حبك شافعي
غض جفونك ياسها
إنى لأعرف بالصواب
أنا من يقدمه الهوى
لو كان قلبي في يدي
أنا في العذاب فلا أعيش
وإذا تلاقى رفقة
مولاي قد نلت المنى
أخاف أن تبقى همومي
وعلى الحقيقة لو أذن

(١) الأبشيهي: المستطرف ج ٢ ص ٢٤٦.

(٢) ديوان القاضي الفاضل (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

ففى هذه المقطوعة تغزل القاضى الفاضل غزلا تذكرنا رفته وسهولته ، وعدم تكلفه بأرق شعراء الغزل ، فهو لا ينسى حبه طول حياته ، وبالرغم من أنه شقى بهذا الحب فهو يشعر أنه فى نعيم ، ويقضى ليله مهموما ويدعو على أعداء محبوبه أن يصيبهم بالليل ما أصابه ، وإذا تحدث العذال فلا يجيبهم ، ويتحدث عن السهام المنبعثة من عيون محبوبه ، وأنه بالرغم من أن عقله كان يدرك طرق الصواب فإنه بلى بالحب ، ثم يدعو لمحبوبه بأن يسلم بالرغم مما يلاقيه هو من شقاء وصل إلى درجة الإشراف على القناء ، ثم انظر إلى البيت الأخير من هذه المقطوعة الذى يقرب مما نسمعه الآن بين شباب مصر فى معاكسة الفتيات فكلمة من المحبوب ولو كانت كلمة الموت له كفيلة بأن تحييه . فشعراء مصر جميعا قد أنشدوا فى الغزل كما قلنا ، ومن الملاحظ أن مقدماتهم الغزلية قد طالت طولاً يخيل إلينا معه أن الشاعر نسى غرضه من القصيدة ، ففى مدائحهم كانوا يقدمون غزلاً ويسرفون فى إطالة الغزل ثم يتخلصون إلى المدح فى شىء من الرقة ، والجمال . فمثلاً قال ابن سناء الملك فى مدح القاضى الفاضل :

ضننت بطرف ظل بعدى سقمه	أرأيتم من ضن حتى بالضنى
يا عاذلين جهلتم فضل الهوى	وعذلتم فيه ولكنى أنا
إنى رأيت الشمس ثم رأيتها	ماذا على إذا هويت الأحسنا
وسألت من أى المعادن ثغرها	فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه	فعلمت حقا أن هذا من هنا

ويقول بهاء الدين زهير فى قصيدة يمدح بها الأمير نصير الدين ابن اللطى :

لها خفر يوم اللقاء خفيها	فما بالها ضنت بما لا يضيرها
أعادتها أن لا يعاد مريضها	وسيرتها أن لا يفك أسيرها
وها أنا ذا كالطيف فيها صابا	لعلى إذا نامت بليل أزورها
من الغيد لم توقد مع الليل نارها	ولكنها بين الضلوع تثيرها
تقاضى عزيم الشوق منى حشاشة	مروعة لم يبق إلا يسيرها
وإن الذى أبقتة منها يد الهوى	فداء بشير يوم وافى نصيرها

أو قول البهاء زهير فى مدح السلطان صلاح الدين بن العزيز:

آها لقلب ما خلا من لوعة	أبدا يحن إلى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الهوى	لو لم تبادره الدموع لأشعلا

ولقد كتبت حديثه وحفظته
أهوى التذلل فى الغرام وإنما
فوجدت دمعى قد رواه مسلسلا
يأبى صلاح الدين أن أتذلا
وعلى هذا النحو أبدع شعراء مصر فى تخلصهم إلى المدح فى شىء من رشاقة اللفظ،
وجمال المعنى مما يدل على تمكن الفن عندهم، ثم انظر إلى ابن مطروح فى هذه المقطوعة
الغزلية الجميلة التى صور فيها عشقه وضعفه وتخاذله أمام محبوبه، وصور هذا المحبوب
فى صور مختلفة:

واستبدلوا بدل السيوف الأعينا
أخذ الأمان لنفسه إلا أنا
فى الحب كل دقيقة أن أفتنا
أرقا، ولا جفن تجافاه الضنى
لا تستطيع الأسد تثبت إن رنا
قالت غصون البنا ما أبقى أنا
منه رشاقة لينها لما انثنى
معنى العقيق وبارق والمنحنى
ومن الحرير تراه خدا أينا.
يا عاشقى والله ظلما بيننا^(١)

أو بالغزال وجدته مظلوما
صلوا عليه وسلموا تسليما^(٢)

فأقلل فإنى فى الغرام لفى شغل
هواء به يزداد فى قوة الفعل
على مهجتى فى الحكم بالجور لا العدل
رمىت به عن سحر أعينها النجل

هزوا القدود، وأرهفوا سمر القنا
وتقدموا للعاشقين فكلهم
لا أن لى جلدا ولكنى أرى
لا خير فى جفن إذا لم يكتحل
وأنا الفداء لبابلى لحاظه
لما انثنى فى حلة من سندس
هذا على أن الغصون تعلمت
ويخده وبشعره وعذاره
أقسى على من الحديد فؤاده
شبهته بالبدر قال ظلمتنى
أو قوله:

إن قسته بالبدر ما أنصفته
هذا نبى الحسن جاء فكلكم
أو قول على بن عرام:

أطلت من اللوم المردد والعدل
فما الحب إلا النار والعدل عنده
رضيت بسلطان الهوى متسلطا
بقلبى سهم لا بقلبك صائب

(١) ديوان ابن مطروح ص ٢٠٨ (طبع الجواثب) سنة ١٢٩٨.

(٢) ديوان ص ٢٠٤.

تنام خلى الحال مما يحسه
وإن غزالا كالغزالة وجهه
ومن خصره المهضوم كيف مع الضنى
وفى خده نار، وماء شبيبة
ومشمولة سُقيتُها من رضابه
فمن شفتيه كأسها وحبابها
ومن ذلك قول ابن مطروح:

سفرت وجاءت فى الغلائل تنثنى
ورنت فما تغنى التمامم والرقى
بدوية كم دونها من ضارب
من كان يملك قلبه من طرفها
قال العواذل إننى فى حبها
كم قلت للعذال لما زرتها
لو شاهدوا منها الذى شاهدته
لم أنسها ويذى مكان وشاحها
أعلمتها أن التفرق فى غد
وبكت فلو نظمت لآلى دمعها
وتقول إذ وجفت خيفة أهلها
أو فاحتجب إن شئت إن لم تلقهم
فسمعت ما يلهى اللبيب مولها
ما كان أشوقنى للثم بنانها
ودخلت جنة وصلها متنزها

شج كحلت عيناه بالسهد لا الكحل
ضعيف القوى يسطو بليث أبى شبل
ينوء بردف باهظ حمله عبل
وما اجتمع الضدان إلا على قتلى
ومالى سوى تقبيل خديه من نقل
يرى عقد ثغر عقده غير منحل^(١)

فأرتك حظ المجتلى والمجتنى
وأبيك عن لحظات تلك الأعين
بالسيف مرهوب السطا لم يؤمن
نال الخلود وليس ذاك بممكن
لا أرعوى لا أنتهى لا أنثنى
هذى الذى فى حبها لمتننى
لتيقن العذال فيها أننى
وسألتها عن خصرها قالت فنى
قالت وعيش أبى لقد أحزنتنى
ظفرت يذى منها بعقد مئمن
أضرب بلحظى أو بقدى فاطعن
بدجى نوائبى الأولى حيرننى
ويذيب قلب الخاشع المتدين
ولقد ظفرت بلثمها فليهننى
يا ليت قومى يعلمون بأننى

من هذا كله نستطيع أن نقرر ما قلناه سابقا إن شعراء مصر جميعا قد تغزلوا، سواء أكان شعريهم وفقا على الغزل أم كان شعرا تقليديا، هو المعروف عند جميع الشعراء الذين كانوا يقدمون لغرضهم بالغزل، ونستطيع أن نلاحظ أن الأوصاف التى ذكروها فى غزلهم هى نفس الأوصاف القديمة المألوفة، ولكن تشبيهااتهم وأساليبهم هى التى نستطيع أن نلمس

(١) الخريدة: ج ٢ ص ١٨١.

منها الروح المصرية. لم يترك شعراء مصر في فنهم الغزلى شيئاً عن الحب بوصاله وهجره والوشاة والعاذلين ولا أجزاء جسم المحبوب إلا ونجده في أشعارهم، ولكن في شىء من العفة إن صح هذا التعبير، والبعد عن فحش القول، أو الألفاظ النابية، حقيقة وجد بين الشعراء من تعرض لذكر أجزاء دقيقة من الجسم إنما لم يكن ذلك في أشعار الغزل التي وصلتنا إنما كان ذلك في شعر الهجاء أو شعر التحامق. وشعراء الغزل اتبعوا في فهم ما عرف في هذا العصر بالطريقة الغرامية التي سنتحدث عنها في حديثنا عن مدرسة الرقة والسهولة.

الخمريات

أسهم شعراء مصر في وصف الخمر ومجالسها وساقيتها، ولهم في ذلك كله جولات لعب فيها خيال الشعراء، فظهر في شعرهم بعض المعاني الجديدة التي لم تخطر على بال الشعراء السابقين ومثل ذلك قول الخطير ابن ممتى في وصف الخمر إذا صبت من الإبريق.

إذا انبرت من فم الأبريق تحسبها شهاب ليل رمى في الكأس شيطاناً^(١)

فالشاعر صور الخمر في اندفاعها من الأبريق إلى الكأس كأنها شهاب ثاقب رمى شيطاناً ربض في الكأس، ولعل الشاعر تخيل حبيبات الخمر في الكأس على أنها الأنفاس الأخيرة للشيطان الغارق بعد أن أصابته رمية الشهاب الصائبة، وهذه صورة خيالية لا أكاد أعرف أحداً من الشعراء سبقه إليها. على أن أكثر الأوصاف التي ذكرها المصريون هي نفس الصفات القديمة التي ردها الشعراء، فقول هبة الله بن وزير.

ومحجوبة في الدن قد كانت الأولى قديماً أعدتها لصرف همومها
يلوح من الكاسات ساطع نورها كشمس تبتد من فتوق غيومها
ولست ترى إلا شعاعاً وإنما يدل عليها نغمة من نسيمها^(٢)

فهذه الأوصاف من أنها حجبت في الدنان منذ عهد بعيد وأن القدماء حرصوا عليها لتبديد همومهم وأنها في الكأس مثل الشمس وأنها كالشعاع لولا أن رآحتها تدل عليها، كل هذه أوصاف قديمة أكثر منها الشعراء السابقون وفي غير مصر، ولكن الجمال هنا في طريقة تعبير الشاعر عن هذه المعاني.

(١) الخريدة: ج ١ ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٤.

وكان الشعراء يدعون بعضهم بعضا إلى مجالس اللهو حيث الخمر والطرب، ويدعون أصدقاءهم إلى قضاء وقت يطيب فيه الجو لاحتساء الخمر وسماع القيان، ويقولون فى ذلك كله شعرا هو صورة لما تعودنا قراءته من الأشعار العربية فى هذا الموضوع، فالشاعر البهاء زهير يقول:

علا حس النواعير وأصوات الشحارير
وقد طاب لنا الوقت صفا من غير تكدير
فقم يا ألف مولاى أدرها غير مأمور
أدرها من سنى الصبح تزد نورا على نور
عقارا أصبحت مثل هباء غير منثور
بدت أحسن من نار رأتها عين مقرور
نزلنا شاطئ النيل على بسط الأزهير
وقد أضحى له بالمو ج وجه ذو أسارير
تسابقنا إلى اللهو ووافينا بتبكير
وفينا رب محراب وفينا رب ماخور
ومن قوم مساتير ومن قوم مساخير
ومن جد ومن هزل ومن حق ومن زور
فطورا فى المقاصير وطورا فى الدساكير
وإخوان كما تدرى من القبط النحارير
وفيهم كل ذى حسن من الإحسان موفور
وتال للمزامير بصوت كالمزامير
وفى تلك البرانيس بدور فى دياجير
وجوه كالتصاوير تصلى للتصاوير
ومن تحت الزنانير خصورا كالزنانير
أتيناها فما أبقوا ولا ضنوا بمدخور
لقد مر لنا يوم من الغر المشاهير^(١)

(١) ديوان البهاء زهير ص ٨١ (طبع المطبعة النيرية).

ففى هذه المقطوعة يصور الشاعر هذا اليوم الذى قضاه على شاطئ النيل بين جماعة من أصدقائه ذوى الأهواء المختلفة فيهم الجاد وفيهم الخليع ، ولكنهم اتفقوا جميعا على أن يقضوا يوما سعيدا بين جمال الطبيعة وفى ضيافة الرهبان الأقباط الذين قدموا لهم الخمر الذى ادخروه عندهم.

وبالرغم من أن المعانى التى أتى بها الشاعر قديمة مألوفة، ولكن الصورة التى رسمها فى هذه المقطوعة صورة مصرية خالصة لا يمكن أن تصور إلا حياة مصرية بما فيها من ذكر النيل والأقباط.

والشاعر ابن النبيه يحث على شرب الخمر وطلب اللذات على جمال الطبيعة مما يجعلنا نتذكر شعراء مدرسة الطبيعة فى العصر الفاطمى فهو يقول مثلا:

الروض بين متوج ومشنف	والزهر بين مدبج ومفوف
والغصن غناه الحمام فهزه	طربا وحياه الغمام بقرقف
والظل يسبح فى الغدير كأنه	صدأ يلوح على حسام مرهف
قس بالسماء الأرض تعلم أنها	بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لخد شقيقتها	مبهوتة بجماله لم تطرف
والطل فى زهر الأقاح كأنه	ظلم ترقرق فى ثنايا مرشف
رق الزجاج وراق كأس مدامنا	ورضاب ساقينا الأغن الأهيف
فمزجت ذاك بهذه وشربتها	ولثمته وضممته بتلطف
وجنيت من وجناته لما استحى	وردا بغير مراشفى لم يقطف
ورنا إلى بطرفه فكأنما	أهدى السقام لمدنف من مدنف
بتنا وقد لف العناق جسومنا	فى بردتين تكرم وتعفف ^(١)

فالأبيات الأولى من هذه المقطوعة فى وصف الطبيعة تشبه إلى حد بعيد مقطوعات الشاعر الفاطمى ابن حيدرة العقيلي^(٢) الذى جعل شعره فى الطبيعة والخمر والحض على طلب اللذة، وابن النبيه هنا صورة أخرى لابن حيدرة فى وصفه للطبيعة أو فى مجونه ولذاته.

(١) ديوان ابن النبيه ص ٣٠.

(٢) راجع كتاب «فى أدب مصر الفاطمية».

أما الشاعر الخطير بن مماتي فهو يصف مجونه وكأنه يروى قصته مع تلك الفتاة التي
قضى معها طول الليل فهو يقول:

يارب خُود زرتها
فاجأتها فتبالمهت
ورشفت خمر رضاها
وأمنت في قصر الوصا
حتى إذا ولى الدجى
وبدت جيوش الصبح في
فارقتها ومدامعى
ويقول البرهان ابراهيم بن الفقيه:

أحد بالعود أكؤس الصبهاء
نفضت راحة الغمام عليها
ولدينا مقطعات عليها
بسط الروض أخضرا في ذراها
في رياض ملأى من الأنداء
لؤلؤاً بددته كف الهواء
نصل السكر بالضحي والمساء
فبدت مثل أنجم في سماء^(١)

والشاعر أمين الدين بن أبي الوفاء المشهور بابن العصار المتوفى سنة ٦٣٠ هـ يقول:

لا تلمنى في الراح والريحان
واسقنى بالكبير حثا فحثا
لا تلذ الحياة إلا بشرب
حبذا حبذا حبيب عطوف
زارنى بالهلال فوق قضيب
أنا دعنى وما تراه فسادا
وسماعى مثالثا ومثانى
بين زهر الرياض حتى ترانى
وغسرام وذاك أغلى الأمانى
ذكر الوصل بعد ما قد جفانى
ظلت أجنى منه قطوف المجانى
فإمامى فيما ارتكبت ابن هانى^(٢)

(١) الخريدة ج ١ ص ١١٦.

(٢) ابن سعيد: المغرب ص ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٧٥.

فهؤلاء الشعراء أصحاب هذه المقطوعات السابقة اتفقوا جميعا على الدعوة إلى شرب
الراح وسماع الأغاني واللهو بالنساء بين جمال الطبيعة، حتى ذهب ابن العصار صاحب
المقطوعة الأخيرة إلى أنه يتبع مذهب أبي نواس في المجون واللهو، ولا يستمع إلى من يقول
له بفساد هذا المذهب، بل أصرَّ على أن أبا نواس إمامه في حياته. وشعراء العصر الأيوبي
أكثروا من هذه المعاني وتلك الصور بالرغم مما ساد العصر من ضعف اقتصادي، بسبب
كثرة الحروب التي خاضها السلاطين الأيوبيون، وبسبب تلك المجاعات التي كانت أثرا
لإنخفاض النيل عدة مرات^(١).

ونضرب مثلا لهذه المجاعات؛ ما حدث في سنة ست وتسعين وخمسائة للهجرة في
سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، إذ يقول المقرئ «وكان سبب الغلاء توقف النيل
عن الزيادة وقصوره عن العادة، فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل
فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من
الجوع، وكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا، والمرأة تأكل ولدها، فعوقب جماعة بسبب
ذلك، ثم فشا الأمر وأعياء الحكام، فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذة
أو شيء من لحمه، وأكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت... إلخ»^(٢) فكل هذه المصائب
التي حلت بالبلاد جعلت المصريين يميلون إلى لون من الاتكال على الله والزهد في الحياة
مما سهل على الصوفية نشر مبادئهم، ومع ذلك كله فلم يترك المصريون لهوهم ومجونهم
وهم في هذا الضيق الشديد، وهذا شأنهم دائما في كل أزمة تقابلهم، لا يجدون متنفسا لهم
من الهم والكرب إلا بالمجون والفكاهة، ويكفي أن نذكر هنا ما قاله القاضي الفاضل في
متجددات سنة سبع وثمانين وخمسائة للهجرة، «في شوال قطع النيل الجسور، واقتلع
الشجر، وغرق النواحي وهدم المساكن وأتلف كثيرا من النساء والأطفال...، ودخلت البلد -
أى القاهرة- وفيها من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بها ومن الفسق ومن الزنا واللواط
ومن شهادة الزور ومن مظالم الأمراء والفقهاء ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب
الخمير في ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام، ومن عدم النكير على ذلك جميعه، ما لم يُسمع
ولم يُعهد مثله»^(٣)، فبالرغم مما حل بالبلاد من مصائب لم يترك المصريون مجونهم.

(١) راجع في ذلك كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة المقرئ نشر الدكتور جمال الشيال.

(٢) المقرئ: إغاثة الأمة ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) المقرئ: الخطط ج ٣ ص ٣٧ وما بعدها.

أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن يحيى الملقب بكمال الدين، المعروف بابن النبيه، الشاعر الذى وصفه السيوطى بقوله «الشاعر المشهور أحد شعراء العصر»^(١) وقال ابن شاعر «الأديب الشاعر البارح صاحب الديوان المشهور»^(٢) ولا تذكر المراجع التى بين أيدينا شيئاً عن أسرته، بل أغفلت هذه المراجع الحديث عن مولده، ونشأته، فنحن لا نعرف أين ومتى ولد، ولا ندرى شيئاً عن طفولته أو شبابه، ولا شيئاً عن أساتذته الذين تلقى عنهم حتى بلغ هذه المرتبة فى الفن، فالذى يقرأ ديوان ابن النبيه يستطيع بسهولة ويسر أن يحكم بأنه كان متضلعا فى العلوم الأدبية، وعلوم العربية، كان متأثرا بشعر القدماء، فأحيانا تراه متأثرا خطى أبى الطيب المتنبى فى مدائحه لسيف الدولة، مثل قول ابن النبيه فى مدح الملك الأشرف موسى:

ملك غرار السيف خير دروعه	والصافنات الجرد خير حصونه
ملك يرى بين الصوارم والقنى	كالليث فى أشباله وعرينه
ملك إذا ما جاش بحر جيوشه	ملا الملا بسهولة وحزونه
لو كان بين يدى «على» منهم	صف لحاز النصر فى صفينه ^(٣)

فمثل هذه المقطوعة تذكرنا منذ أول وهلة بهذه القصائد التى تعد من أروع ما أنشده المتنبى وتدلنا على مدى تأثر ابن النبيه بالشاعر القديم. ويقول بعض الباحثين إننا نجد فى شعر ابن النبيه ما يذكرنا بأبى نواس فهو يطلب اللذة، ويدعو إلى المجون واللهو كما كان يفعل الشاعر أبو نواس، فابن النبيه يقول فى الدعوة إلى الشراب وفى وصف الخمر وساقبها:

طاب الصبوح فهاك وهات	واشرب هنيئا يا أبا اللذات
كم ذا التوانى والشباب مطاوع	والدهر سمح والحبیب مواتى
قم فاصطح من شمس كألك واغتبق	بكواكب طلعت من الكاسات
صفراء صافية توقد نورها	فعجبت للنيران فى الجنات

(١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦.

(٢) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ٢ ص ٧١.

(٣) ديوان ابن النبيه ص ٣٥.

والدر مجتلب من الظلمات
مرقت من الراوق في الطاسات
منديل عذرتها بكف سقات
خنت الشمائل شاطر الحركات
ملتفة كأساود الحيات
ما بين منصرف وآخر آت
عدل الزمان على نوى الحاجات^(١)

ينسل عن قار الظروف حبابها
وتريك خيط الصبح مفتولا إذا
عذراء واقعها المزاج أما ترى
يسعى بها عبل الروادف أهيف
يهوى فتسبقة نوائب شعره
بدر منازل نيرات كؤوسه
لو قسمت أرزاقه بيمينه

فالشاعر هنا يمدح الصبح ويدعو إلى من يشاركه في شرابه ، وينعى الكسل والتواني لأن الظروف كلها مهياةً، فهناك الشباب والحببيب الذي أقبل للمشاركة في الشراب ، ثم هذه الفرص التي سمح بها الدهر، لهذا يدعو شاعرنا إلى تعاطي الخمر في الصباح وفي المساء ، وبعد هذا الإلحاح في دعوته أخذ في وصف الخمر، فهي شمس في الصباح ، وكواكب بالليل، يخرج حبابها من القار الأسود كما يخرج اللؤلؤ من الظلمات إلى غير ذلك من هذه الصفات التي عرفها شعراء العرب من قبل، وإذا تحدث عن الساقى فحديثه هو نفس حديث الشعراء السابقين، ولكن أسلوب الشاعر هنا، ودقة اختياره للألفاظ التي رسم بها صورته المختلفة تجعلنا نعجب بفن هذا الشاعر، ولكن ذلك كله لا يجعلنا نقول إن الشاعر كان متأثراً بأبي نواس، إنما كان يتبع شعراء الغزل والطبيعة الذين كانوا في العصر الفاطمي، فكانوا يدعون مثله إلى هذا اللون من اللهو والمجون ويكفي أن نلقى نظرة على شعر الأمير تميم وابن وكيع التنيسي وابن حيدرة العقيلي وغيرهم من شعراء العصر الفاطمي لنذكر أن ابن النبيه لم يكن إلا تلميذاً من هذه المدرسة المصرية الخالصة بالرغم من هذا التشابه بين منهج أبي نواس ومنهج شعراء هذه المدرسة المصرية فالجميع يطلبون اللذة والتمتع بما في الحياة من مباحج.

وذهب الباحثون أيضاً إلى أن ابن النبيه متأثر بأبي النواس لأنه دعا إلى عدم الوقوف على الديار وتهكم بالبكاء بالأطلال فهو يقول مثلاً:

وسلّ فؤادك عن كل ذاهب
شف صفر الترائب سود الذوائب

دع النوح خلف حدوج الركائب
ببيض السوالف حمر المرا

(١) ديوان ابن النبيه ص ١٣.

ت بثغر الحباب ثنايا الحبايب
تبلى الصدا بصداها المجاوب
وكم فى جنون الهوى من عجائب
لما عللتك الأمانى الكواذب
ترى الماء يجمد والخمر ذائب
ومفرقها أشمط اللون شائب
من الدن كالمحصنات الكواعب
جواهر قد كللت فى عصائب
س إن السجود إلى النار واجب^(١)

فما العيش إلا إذا ما نظم
حاشيك من وقفة بالطلول
تكلف صم الحجار الكلام
ولو كنت تشكو الهوى صادقاً
تأمل كؤوس عتيق الرحيق
لها فى الزجاجة رقص الشباب
وترعد غيظاً إذا أبرزت
كأن الحباب على رأسها
جمرتها صح عند المجو

فهذه المقطوعة وأمثالها من التهكم بمن وقف على الديار وبكى الأطلال أو ودع ركب الحبيب بالبكاء كل ذلك جعل بعض الباحثين يقولون إنه متأثر بأبى نواس، غير أنى لا أوافقهم على هذا الرأى لأن الشاعر مصرى متأثر بالحياة المصرية، شأنه فى ذلك شأن جميع الشعراء فى مصر الإسلامية الذين لم يعرفوا الوقوف على الديار ولم يذكروا الأطلال لأن حياة الاستقرار فى مصر لا تعرف هذا اللون الذى عرفته البادية، فالمصريون لا يتحدثون عن الرسوم الدارسة لأنها ليست من حياتهم، وإذا فرض ووجدنا شاعراً مصرياً ذكر الديار والأطلال فإن ذلك يعتبر تقليداً لشعراء العرب، ونظر المصريون إلى هذا القول على أنه من المستطرفات، معنى هذا أننا لا نستطيع أن نقول إن ابن النبيه كان متأثراً بأبى نواس بالرغم مما نجده فى شعره من التهكم بالواقفين على الديار. ويخيل إلى أن ابن النبيه كان فناناً يعيش الجمال ويتبعه وكان يهيم بالطبيعة أيضاً، فهو يقول مثلاً:

نزحتمو فهى بعد البعد ما نزحت
لابل هى الشمس زالت بعد ما جنحت
عنى فلو لمحت صيغ الدجا لمحت
إن ضرجت قلبه باللحظ أو جرحت
للحرب بيض حداد قط ما صفحت
حمام الحلى فى أفنانه صدحت
كمسكة نفحت فى جمرة لفحت

يا ساكنى السفح كم عين بكم سفحت
لهفى لظبية أنس منكمو نفرت
بيضاء حجبها الواشون حين سرت
يقتص من وجنتيها لحظ عاشقها
من لى بسلم وفى أجفان مقلتها
يهتز بين وشاحيها قضيبي نقا
وأسود الخال فى محمر وجنتها

(١) ديوان ابن النبيه ص ٢٨.

لها جفون وأعطاف عجبت لها
وروضة وجنات الورد قد خجلت
تشاجر الطير في أفنانها سحرا
والقطر قد رش ثوب الدوح حين رأى
باكرتها وحمام الزهر نافرة
ما بين غدران ماء كاللجين طفت
بكر إذا ابن سماء مسها ليست
تشعشت في يد الساقى وقد مزجت
يسعى بها آهيف خفت معاطفه
للحسن ماء ومرعى فوق وجنته
ومثل قوله :

إذا رأيت الهلال والغصنا
مهفهم ما إن ثنى لنا وبدا
كالروض حسنا وبهجة وجنى

بالسقم صحت وبالسكر الشديد صحت
فيها ضحى وعيون النرجس انفتحت
ومالت القضب للتعنيق واصطلحت
مجامر الزهر من أذياه ونفحت
عن البروج بكف الصبح إذ وضحت
وأكؤس كنضار ذائب طفحت
ثوب الحباب حياء منه واتشحت
كأنها بنصال الماء قد ذبحت
لكن روادفه من ثقلها رجحت
ربيع عيني فيه كلما سرحت^(١)

ذكرت قدا ومنظرا حسنا
إلا رأيت الهلال والغصنا
كالبدر حسنا ورفعته وسنا

فالشاعر هنا يتحدث عن محبوبه متغزلا ويصف المحبوب بالهلال والغصن وأنه كالروضة
في الحسن والبهجة وكالبدر في الرفعة والسنا.

ويقول مرة أخرى يصف جمال الروض في دمشق في قصيدة يمدح بها صاحب بن شكر
أثناء زيارة هذا الوزير إليها فهو يقول :

يا نديمى بالله غنى بذكرا
واغتنم لذة الزمان فما جلق
حبذا النيران من أرض نور
والنسيم الذى يمر على الغو
فشاعرنا يعجب بهذه المناظر التى أحاطت بدمشق وبذلك النسيم الذى يمر على غوطة
دمشق. فالطبيعة عنده كانت موضوعا من موضوعات شعره فكثيرا ما كان يلائم بين غزله
والطبيعة ويشبه المحبوب دائما بالمناظر التى يجدها فى الطبيعة.

(١) ديوان ابن النبيه ص ٢٣.

(٢) الديوان ص ٧٠.

كان ابن النبيه من جماعة الشعراء الذين ذكروهم ابن ظافر الأزدى أنهم من أصدقائه، وروى له في كتابه بدائع البدايات بيتين في منافسة ذهنية كانت بين هؤلاء الأصدقاء الشعراء في فانوس السحور:

حبذا في الصيام مئذنة الجا مع والليل مسبل أذباله
خلتها والفانوس إذ رفعته صائدا واقفا لصيد الغزاة^(١)

وروى له أيضا مقطوعة تبارى الشعراء في الصنع في معناها:

وغادة قالت وفي خدها حية مسك قد سبتنى المنام
حمرة خدى إذا قارنت سواد أصدغى هام الهوام
أما ترى الحية تسعى إلى الننا ر إذا ما أضرمت فى الظلام
وروى له فى نفس المعنى أيضا:

فى ورد خديك بدت عقرب وحية تلسع جانبيها
يقول من بات سليما بها يا عيش من أصبح حاويها^(٢)

ولا ندري كيف اتصل ابن النبيه بالأمراء الأيوبيين، ولكننا نرى فى ديوانه عدة قصائد فى مدح الملك العادل^(٣)، والملك المظفر^(٤).

ولا ندري تماما تاريخ هذه القصائد غير أن ابن النبيه استطاع أن يوثق صلته بالملك الأشرف موسى فاتخذة كاتب إنشائه فى الجزيرة، فأقام ابن النبيه فى نصيبين وظل بها إلى أن مات، ونستطيع أن نرجح أنه اتصل بالأشرف حوالى سنة ٦٠٠ هجرية، ففى إحدى قصائده أشار إلى انتصار الأشرف على كيكاووس صاحب الروم، وهذه الواقعة كانت حوالى سنة ٦١٣ هـ^(٥) ثم إنه أشار فى قصيدة أخرى إلى دخول الملك الأشرف إلى خلاط وكان ذلك سنة ٦٠٩ هـ، فهذا كله يرجح أن صلة الشاعر بالأشرف كانت قبل هذه السنوات، وإذا عرفنا أنه مدح القاضى الفاضل بست مقطوعات لا نشك أنه أنشدها قبل سنة ٥٩١ هـ

(١) بدائع البدايات ص ١٤٩.

(٢) نفس المرجع ص ٩٥٤.

(٣) الديوان ص ١٠.

(٤) الديوان ص ٦٣.

(٥) راجع الديوان ص ٧٦.

وهى السنة التى انقطع فيها الفاضل عن الحياة العامة واعتزل الناس واعتزل الشعراء، إذن تكون صلة الشاعر بالأشرف بعد هذه السنة، كل ذلك يجعلنا نرجح أنه ترك مصر إلى الجزيرة حوالى سنة ٦٠٠ هـ. وابن النبيه فى الجزيرة اتصل بعدد من الشعراء على نحو ما كان متصلاً بجماعة ابن ظافر، ونذكر من هؤلاء الشعراء أبا القاسم ابن نفظويه، وأبا العز الأعمى وأبا محمد القلعي وغيرهم^(١).

غير أن ابن النبيه لم يمدح أحداً وهو فى الجزيرة سوى الملك الأشرف فإنه انقطع إليه انقطاعاً تاماً مما يذكرنا بانقطاع المتنبي عندما كان يتصل بأبى من الأمراء. وابن النبيه فى شعره هو تلميذ لمدرسة الطبيعة من ناحية، ومدرسة الرقة والسهولة من ناحية أخرى، غير أن صناعته الكتابية كانت تؤثر عليه أحياناً فهو مع رفته وسهولته كان يزين شعره بما كان يزين به شعراء مدرسة الكتاب أشعارهم، فاقراً له هذه المقطوعة وما فيها من تشبيهات وكنائيات وتلاعب لفظى مع سهولة فى الألفاظ ورقة فى الأسلوب:

من سحر عينيك الأمان الأمان	قتلت رب السيق والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلّة	لولم تكن كحلاء كائنت سنان
أهيف عبل الردف حول اللمى	مر الجفا قاس رطيب البنان
يزداد إذ أشكو له قسوة	ولو شكوت الحب للصخر لان
ساق لها رضوان عن حفظه	ففر من جملة حور الجنان
بدر وكأس الراح شمس الضحى	لله ما أسعد هذا القرآن
توقدت جمرة لألائها	كأنها بهرام أو بهرمان
بخده أو طرفه أو جنا	لماه سكرى لا ببنت الدنان
يا لائمى ناعنى فإنى فتى	ما ترك الحب بجسمى مكان
لا تسأل العاشق عن حاله	فدمعه عن سره ترجمان
لولا دموعى والضنا لم أبح	قد ينطق المرء بغير اللسان ^(٢)

وعلى هذا النحو من الفن كان شعر ابن النبيه حتى إن بعض مقطوعاته يتغنى بها فى عصرنا الحديث مثل قصيدته «أفديته إن حفظ الهوى.. إلخ» وقصيدته «أماناً أيها القمر المظل.. إلخ» وهذا يدل على أن غزله صالح لكل عصر ولكل بيئة.

(١) راجع ابن ظافر بدائع البداية ص ١٤٢، ص ١٤٩.

(٢) الديوان ص ٢١.

أما الفكاهة في الشعر المصرى في ذلك العصر فقد ظهرت ظهورا واضحا، والفكاهات مما شغف بها الشعب المصرى وعرف بها منذ أقدم عصوره بل لا أعالي إذا قلت إنها من مقومات الشخصية المصرية، والفكاهة تقوم في الأغلب على التلاعب اللفظي وخاصة على فن التورية، ثم على عمق الفكرة مما يدل على مهارة المصرى وبراعته في هذا الفن من القول وعلى أصالته في نفس الشعب، على أن كثيرا ما تخرج الفكاهة المصرية إلى شيء من الفحش مما يزيد في أثر وقعها في النفس. ولا بد هنا أن نفرق بين الفكاهة والهجاء، فالهجاء لون من ألوان السباب الغرض الأول منه أن ينال الهجاء من خصمه حتى يشفي غلته ويريح قلبه مما فيه من حقد، فالغرض منه الإيذاء قبل كل شيء إمعانا في الخصومة والعداء. أما الفكاهة فهي لون من ألوان الإضحاح على الغير دون أن يقصد إلى إيذائه، حقيقة قد تكون الفكاهة أشد إمعانا في الإيذاء من الهجاء، فقد تكون السخرية اللاذعة أشد وقعا من أي شيء آخر. ولكن ذلك كله يتوقف على نفسية المتفكه به. فالدعابة بين الأصدقاء مثلا بالرغم مما فيها من قسوة ومن فكاهاة ساخرة لانستطيع أن نتخذها هجاء؛ وإن قيلت الفكاهة نفسها في خصم فهي هجاء لأن المقصود بها في هذه الحالة الإيذاء والنيل من الخصم فمثلا قال البهاء زهير :

التحى الأمرد الذى	كان في التيه مسرفا
حسننا كان وجهه	وسريعا تصحفا
سرّ والله ناظري	ما رأى فيه واشتفى
شكر الله لحية	صيرت وجهه قفا ^(١)

فهنا يتفكه الشاعر بصديقه الأمرد لأنه يريد بهذه الدعابة الإضحاح قبل كل شيء، ثم يقول البهاء زهير أيضا :

وأحمق ذى لحية	كبيرة منتشرة
طلبت فيها وجهه	بشدة فلم أره
تبالها من لحية	كبيرة محتقرة
مضحكة ما كان قـ	ط مثلها لمسخرة

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٣٣.

فالشاعر هنا يهجو، وهجاؤه فيه سخرية لاذعة مؤذية وهكذا نستطيع أن نفرق بين الفكاهة والهجاء، فمن الفكاهات المصرية التي تذهب مذهب الدعابة ما يقوله البهاء زهير يصف شيخا يدعى العلم كان يرتاد مجلسه :

كلمما قلت استرحنا جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منه انقباض واحتشام
وعلى الجملة فالشيء سخ ثقيل والسلام

وقول الوجيه ابن الذروري في صديقه جعفر:

لا تبعثوا بسوى المهذب جعفر فالشيخ في كل الأمور مهذب
طورا يغنى بالرباب وتارة تأتي على يده الرباب وزينب^(١)

فأمثال هذه الدعابة الساخرة أشد إيذاءً من الهجاء بالرغم من أنها قيلت في صديق ولكن المصرى إذا أراد أن يتفكه فهو يتهكم بصديقه كما يهجو عدوه. ومن أمثلة الفكاهة في الشعر قول ابن العصار وقد زار قرية فقدمت له المائدة ولكن أحدق بها جماعة من البدو فقال لهم:

لا كان يوم قد غدا جامعا لى بأناس ما لهم فائدة
قد قلت إذا حاموا على زادهم قد جاءت الأنعام والمائدة^(٢)
فالشاعر استخدم التورية في هذه الفكاهة إذ ذكر سورة الأنعام ليورى بها عن هؤلاء البدو، ويورى بسورة المائدة عن هذه المائدة التي أمامهم. ومثل ذلك قول الأسعد بن ممتى في رجل رآه بدمشق:

حكى نهرين ما فى الأر ض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثورى وفى أخلاقه بردا^(٣)

فثورى وبردنا نهران بالشام والشاعر شبّه بهما هذا الإنسان فهو يشبه الثور فى الخلقة والبرد فى الأخلاق. ومن الفكاهات الطريفة تلك القصيدة التى أنشدها ابن الذرورى فى صديق له أحذب ظن أن الشاعر ابن الذرورى هجاه فبعث ابن الذرورى إليه هذه القصيدة

(١) الصفدى: الغيث ج ١ ص ٣٦٠.

(٢) المغرب لابن سعد ص ٢٧٧.

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٨٢.

يتصل فيها من الهجاء ويعتذر إليه ويمدح حديثه في صورة ساخرة هي أقرب إلى الهجاء ولكنها دعابة واضحة من اللون الذي يسميه العامة في مصر «التريقة».

يا أخى كيف غيرتك الليالى
حاش لله أن أضافى خليلا
زعموا أننى أتيت بهجو
كذبوا إنما وصفت الذى في
لا تظنن حدبة الظهر عيبا
وكذاك القسى محدودبات
ودنانى القضاة وهى كما تع
وأرى الاتحناء فى منسر الكا
وأبو الغصن أنت لا شك فيه
قد تحليت بانحناء فأنت الرا
وتعجلت حمل وزرك فى الظه
إن حمل الذنوب أهون فى الدن
كون الله حدبة فيك إن شئ
فأنت ربوة على طود حلم
ما رأتها النساء إلا تمننت
وإذا لم يكن من الهجر بد

وأجالت ما بيننا بالمحال
فيرانى فى ودّه ذا اختلال
معرب فيك عن شنيع المقال
ك من النبيل والسنا والكمال
فهى للحسن من صفات الهلال
وهى أنكى من الطبأ والعوالى
لم كانت موسومة بالجمال
سر يلفى ومخلب الرئبال
وهورب القوام والاعتدال
كع المستمر فى كل حال
رفأمنا فى موقف الأهوال
يا على أنه من الأثقال
ت من الفضل أو من الإفضال
منك أو موجة ببحر نوال
لو غدت حلية لكل الرجال
فعسى أن تزورنى فى الخيال^(١)

فالشاعر ابن الذرورى يداعب صديقه ويسخر منه ولكن فى صيغة مهذبة فهو يمدحه ولكنه فى الوقت نفسه يريد أن يضحك منه وأن يضحك عليه إخوانه وأصدقائه فهو يمدح حديثه وأنها دليل الجمال والحسن ويتخذ من المحدودبات وسيلة لهذا المدح فالهلال يوصف بجماله وحسنه ولا شك أن هذه مغالطة من الشاعر لأن الهلال مقوس ولكن الشاعر يريد المداعبة قبل كل شيء، والقسى ليست أنكى من الطبأ والعوالى إنما هى النبأل التى ترمى عن القسى فهذه مغالطة أخرى من الشاعر، ثم يعود إلى مداعبته بأن الأحذب هو الراكع المستمر وأنه يحمل وزره على ظهره فهى ذنوب يحملها فى هذه الدنيا ستخفف عنه العذاب يوم القيامة ثم اقرأ له هذه الدعابة القاسية من أن النساء تتمنى أن يتحلى كل رجل بحدبة.

(١) الخريدة ج ١ ص ١٨٧.

هذه كلها صور ساخرة مؤلمة أرسلها ابن الذروري إلى صديقه هذا ثم ختم سخريته بسخرية قاسية بقوله إذا كان الأحذب لا يرى بدا من هجر صديقه فهو يطلب زيارته في الخيال. ومثل هذا يقول ابن مطروح وقد عاده أصحابه ويظهر أن تلك الزيارة أقلقت الشاعر فأنشد يقول:

وصاحب عادنى يوماً فأقلقنى حتى ظننت رسول الموت وأفانى
ولو أطال قليلاً لم يطل أجلى وجاءنى غاسلى يسعى بأكفانى
فليت شعرى وطلاب الهوى عجب أعادنى أم لحاه الله عادانى^(١)

وهكذا كانت الفكاهة المصرية، ويطول بي الأمر لو تحدثت عن كل هذه المقطوعات التي أنشدها شعراء مصر والتي تظهر فيها روح الدعابة بين الشعراء.

فن الهجاء

أما الهجاء فقد أكثر منه الشعراء وكانوا على شيء كثير من القسوة وتعمد الإيذاء حتى ذهب الشاعر المصرى ابن سناء الملك إلى هجاء الشمس بقوله:

لا كانت الشمس فكم أصدأت صفحة خد كالحسام الصقيل
وكم وكم صدت بوادى الكرى طيف خيال جاءنى من خليل
وأعدمتنى من نجوم الدجى ومنه روضاً بين ظل ظليل
تكذب فى الوعد وبرهانه أن سراب القفر منها سليل
وتحسب النهار حساماً فتر تاع وتحكى فيه قلب الذليل
إن صدأ الطرف فما صقله إلا التحلى بمحيا جميل
وهى إذا أبصرها مبصر حديد طرف عاد عنها كليل
يا غلة المهموم يا جلدة المحموم يا زفرة صب نحيل
يا فرحة المشرق وقت الضحى وسلحة المغرب عند الأصيل
أنت عجوز لم تبرجت لى وقد بدأ منك لعاب يسيل
وأنت بالشيطان قرنانة فكيف تهدينا سواء السبيل^(٢)

(١) ديوان ابن مطروح مطبعة «الجوائب».

(٢) الصفى الغيث ج ٢ ص ٢٣٦.

وقال علي بن عرام يهجو شخصا اسمه خالد:

وخالد عنصره واحد
فهو ثقیل یابس بارد^(١)

عناصر الإنسان من أربع
فمن كثيف الأرض تكوينه
وقال هبة الله بن عرام:

شحا عليه فما أصاها
لغاص في إثره وساها
فاستياسوا منه حين شاها^(٢)

كم عذوه على بغاه
ولو رأى في الكنيف (أ...)
أعياهم دواؤه صبيها
ويهجو هبة الله بن وزير:

على يده قفل منيع وأغلاق
فلا هو مسرور ولا أنا مشتاق
ولا ثمر عقباه نار وأحرق^(٣)

ومشتهر بالبخل غاو بلؤمه
إذا زرتة يزور منى تبرما
من الشجر الملعون لا ورق به
وقال في أحدب:

وهي على الجبهة مبطوحه
فارة نجار على شوحه

انظر إلى الأحدب مع عربه
كأنه لما علا ظهرها
قال ابن سناء الملك:

العمى في عشقك لا العمش
تلتهب النيران في القش
مالا يرى قلت على الفرش^(٤)

لهفى على عشاقك الطرش
عاشقك القش ولا غرو أن
قالوا لقد أحدث من بعدنا

وبلغ ابن سناء الملك أن الشاعر أبا المكارم بن وزير هجاه فأدبه وشمته فكتب إليه

ابن المنجم الشاعر يقول:

صديقنا ابن وزير كيف تظلمه

قل للسعيد أدام الله دولته

(١) الخريدة ج ٢ ص ١٧٥.

(٢) نفس المصدر ص ١٨.

(٣) الخريدة ج ٢ ص ١٥٠.

(٤) الغيث ج ١ ص ٢٤٧.

منه ومن بعد هذا ظلت تشتمه
والشرع لا يقتضيه بل يحرمه
فالصفع والله أيضا ليس يؤلمه

صفعته إذ غدا يهجوك منتقما
هجو بهجو وهذا بالصفع فيه ربا
فإن تقل بالهجو عنده أثر
ومما قاله ابن سناء الملك وفيه فحش:

وجاء مثل طنينين
وجاء وهو كعينين
وهكذا كان الهجاء في الشعر المصري في العصر الأيوبي عبارة عن تهمة تلتصق بالهجو،
أو تجسيم صفات قبيحة تلحق به للزراية به وإيذائه والنيل منه.

ننا... أو خررقوه
وراح وهو كميم

الإخوانيات

على أن الفن الذي أكثر منه المصريون في عصرنا هذا هو فن الإخوانيات والظاهر أن العلاقة المتينة التي كانت تربط الشعراء بعضهم ببعض مصدرها فن الأدب، فقد قرب الفن بينهم؛ وجعل منهم عصابة أولى قوة، وإخوانا في السراء والضراء، ويخيل إلى أن هذه العلاقة لم تكن بين شعراء مصر فحسب، إنما كانت أيضا بين كل شاعر يفد على مصر، وبين شعراء هذا البلد، ويكفي أن نذكر للتدليل على ذلك أن الشاعر شرف الدين بن عنين الذي وفد على مصر فاستقبله شعراؤها بما يليق بمكانته في فن الشعر ولا سيما ابن سناء الملك بالرغم من أن ابن عنين هجا صلاح الدين والقاضي الفاضل بقوله:

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير منحذب

هجا في هذا البيت السلطان صلاح الدين بأنه أعرج، وهجا العماد بأنه أعمش، وهجا القاضي الفاضل بأنه أهدب، مما جعل السلطان يأمر بنفيه إلى خارج مصر، فاضطر إلى الرحلة إلى الهند، ثم عاد إلى مصر بعد ذلك، واستمر في حياته مع زملائه الشعراء.

مثل آخر نصرته لهذا الإخاء بين شعراء مصر والشعراء الوافدين هي قصة وفود ابن سعيد المغربي وكيف ذهب عدد من شعراء مصر لاستقباله بالإسكندرية عندما علموا بحضوره، ويحدثنا ابن ظافر في كتابه بدائع البداية عن مدى الأخوة التي كانت بين الشعراء شهاب الدين يعقوب نجم الدين ابن المجاور المعروف بابن أخت الوزير، والشاعر نشو الملك على ابن مفرج ابن المنجم، والأعز ابن المؤيد، والوجيه الذروي وجعفر المنبود شلعلع وغيرهم، وكيف كانوا يخرجون إلى أماكن النزهة، ويقرضون الشعر، ويتباحثون في موضوعات شتى،

ويتبارون في الإنشاد، وكثيرا ما كانوا يختلفون فيما بينهم، ويتندر بعضهم ببعض، بل قد يؤدي الأمر إلى أن يهجو بعضهم بعضا، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى صفوفهم وودادهم، فمن ذلك مثلا ما يروى من أن الوجيه على ابن الذرؤى وهبة الله ابن وزير، وجماعة آخرون ذهبوا إلى حمام، فجرى بين ابن الذرؤى وابن وزير تنازع أدى إلى تناكر فضيلة، ثم تراضيا بالتحكيم، فحكم بأن يصنعا قطعيتين في صنعة الحمام على البديهة فصنع ابن الذرؤى:

إن عيش الحمام عيش هنىء
جننة تكره الإقامة فيها
فكان الغريق فيها كليم
أما ابن وزير فقد صنع:

لله يوم بحمام نعمت به
كأنه فوق شفاف الرخام بها
فانتقد الجماعة تشبيهه الماء واستبردوا ما أتى به فقال ابن الذرؤى:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
أقام يجهد أياما رويته
أو كاد يحرقه من فرط إذكاء
وشبه الماء بعد الجهد بالماء^(١)

ومثل هذا أيضا تلك القصة التى يرويها ابن ظافر إذ يقول: واجتمعنا ليلة فى رمضان بالجامع فجلسنا بعد انقضاء الصلاة للحديث وقد وقد فانوس السحور فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى الحجاج يوسف بن على المنبوز بالنعجة أن يصنع فيه، وإنما طلب بذلك تعجيزه فصنع وأنشد:

ونجم من الفانوس يشرق ضؤوه
ولم أر نجما قط قبل طلوعه
فانتدبت له من بين الجماعة وقلت هذا تعجب لا يصح لأنى والحاضرين قد رأينا نجوما
لا تدخل تحت الحصر إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف
الجماعة بعد ذلك فى تقريعه وأخذوا فى تمزيق عرضه وتقطيعه فصنع وأنشد:

هذا لواء سحور يستضاء به
والصائمون جميعا يهتدون به
وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
كأنه علم فى رأسه نار

(١) ابن ظافر: بدائع البداية ص ١٣٨ وما بعدها.

فلما أصبحنا سمع من كان غائبا من أصحابنا فى ليلتنا ما جرى فصنع الرشيد
أبو عبد الله محمد بن متانوَ رحمه الله تعالى وأنشدنيه :

أحبيب بفانوس غدا صاعدا
يقضى بصوم وبفطر معا
وصنع الفقيه أبو محد القلعى :

وكوكب من ضرام الزند مطلعته
يراقب الصبح خوفا أن يفاجئه
كأنه عاشق وافى على شرف
ثم صنعت بعد حين :

الست ترى شخص المنار وعوده
كحامل منظوم الأنابيب أسمر
ترى بين زهر الزهر منه شقيقة
وتبدو كخد أحمر والدجى لى
كأن لزنجى الدجى من لهيبه
تراه يراعى الصبح ليلا فإن دنا
فهل كان يراها لعشق ففر إذ
وقلت فى اختصار هذا المعنى :

انظر إلى المنار والـ
كحامل رمحاً سنناً
وقلت أيضا :

الست ترى حسن المنار وضوءه
تراه إذا جن الظلام مراقبا
كصب بخود من بنى الزنج سامها
وقلت فيه :

وليلة صوم قد سهرت بجنحها
على أنها من طولها تعدل الدهرا

من الشهب قد أضحت مساميره تبرا
لفانوسه والليل قد أظهر الزهرا
وحيا بها زنجية وشحت درًا

قال ولما صنعت هذه القطع نذبت أصحابنا للعمل فضع شهاب الدين يعقوب :

من الجو يسدل أستاره
فذهب بالنور أقطاره
ظلام الدجى للقرى ناره
م ورقا غدا البدر قسطاره
فتى قام بصرف ديناره

حكى الليل فيها سقف ساج مسمرا
وقام المنار المشرق اللون حاملا
كما قام رومى بكأس مدامة

رأيت المنار وجنح الظلام
وحلق في الجو فانوسه
فقلت المحلق قد شب في
وخلت الثريا يدا والنجو
وخلت المنار وفانوسه

وأنشدنى القاضى أبو الحسن بن النبيه لنفسه :

مع والليل مسبل أذباله
صائدا واقفا لصيد الغزاله

حبذا فى الصيام مئذنة الجا
خلتها والفانوس إذ رفعته

وأنشدنى ابن نبطويه :

لمن أراد سحورا وهو يتقد
فى الجو أعور زنجى به رمد

يا حبذا رؤية الفانوس فى شرف
كأنما الليل والفانوس متقد

وأنشدنى أيضا لنفسه :

فى رأسه نارا لمن يترصد
ذهبا وقامت فى الدجى تتشهد

نصبوا لواء للسحور وأوقدوا
فكأنه سبابة قد قمعت

وأنشدنى الفقيه أبو يحيى السولى رحمه الله تعالى لنفسه :

واستوضحت غرر من ثغرها شنبا
إنسان مقلتها النجلاء واشتهبا
زنجية حملت فى كفها ذهبًا

وليلة ملئت أشداقها لعسا
ولاح كوكب فانوس السحور على
حتى كأن دجاها وهو ملتهب

وصنع الأديب أبو العز مظفر الأعمى وكتب بها عنه إلى وكان قد سمع جميع المقاطيع

فأخذ معانيها وقال :

أرى علما للناس فى الصوم ينصب
وما هو فى الظلماء إلا كأنه
ومن عجب أن الثريا سماؤها
فطورا تحييه بباقة نرجس
وما الليل إلا قانص لغزالة
ولم أر صيادا على البعد قبله
وأنشد فى الشريف أبو الفضل جعفر:
كأنما الفانوس فى
لواء نصر مذهب

على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
على رمح زنجى سنان مذهب
مع الليل تلهى كل من يتقرب
وطورا يحييها بكأس تلهب
بفانوس نار نحوها يتطلب
إذا قربت منه الغزالة يهرب
صاريه لما اتقدا
فى رأس رمح عقدا^(١)

وهكذا كان شعراء مصر فى هذا العصر يقضون وقتا طيبا بين أماكن الزيارة فى صحبة بعضهم بعضا، ولا ينسون وهم فى هذه الزيارات فنههم الذى أحبوه فكانوا يقرضون الشعر فى موضوعات مختلفة وكل منهم يريد أن يبرز ويتفوق على زملائه، فكانت مباراتهم فى الشعر على هذا النحو سببا فى أن يجهد الشاعر نفسه لإجادة فنه وإتقان شعره بأن يحاول اختراع شىء من المعانى الجديدة أو الصور المبتكرة أو إجادة تشبيهاته وكنياته إلى غير ذلك من ألوان المحسنات البيانية والبديعية.

وكثرت المكاتبات الشعرية بين هؤلاء الشعراء الأصدقاء مثل تلك التى كانت بين ابن سناء الملك والقاضى الفاضل التى تحدثنا عن شىء منها فى حديثنا عنهما، ومثل التى كانت بين ابن مطروح والبهاء زهير وستحدث عن ذلك فى فصل قادم أو بين ابن مطروح ومهذب الدين بن الخيمى فقد كتب له ابن المطروح وكان ابن الخيمى على ديوان المواريث:

وأبطلت الدعوى لمهيار فارس
سبرتهما ما بين ماش وفارس
ية والديوان نظرة فارس
به سربها من كل أجزأ فارس
وأحياه من بعد البلى وابن فارس
غلام فلا تبعث سواه بفارس

لمهيار مصر أسجل الفضل عندنا
فبينهما فى النظم والنثر إن هما
فتى نظر السلطان فيه مخايل الدرا
فولاه أموال المواريث حاميا
كأن ابن مطروح أقام ابن أحمد
وكل أمير فى البلاغة عنده

(١) ابن ظافر: بدائع البداية ص ١٤٧ وما بعدها.

فكتب إليه مهذب الدين بن الخيمي:

أباعثها ملء المسامع حكمة
شوارد عن أوهام قوم شوارد
مهذبة جاءت لنا من مهذب
تعز على من رامها غير ربها
سداسية لو قال أتى بسابع
وحاولت منها الرء والسين فاحتمت
حميت حماها ثم أغلقت بابها

قوافي تجلى كالعذارى العرائس
أوانس تزرى بالحسان الأوانس
تذل له كل القوافي الشوامس
وتطغى فما تعطى قيادا للامس
لها ابن سليمان أتى بعد خامس
على بحام ذى اقتدار وحابس
وحصلت منها كل بيت بفارس^(١)

من لطائف إخوانيات ابن مطروح ما كتبه ردا على خطاب صديق له:

وافى كتابك بعد فترة
وففضته فلثمته
فطريت حين قرأته
فحسبت أن الطرس مند

فنفى المساءة بالمسرة
لما غدا فى الحسن ندره
وسكرت لكن ألف سكرة
ه زجاجة واللفظ خمرة^(٢)

وانظر إلى قول ابن النبيه وهو يستدعى بعض أصحابه إلى مجلس أنس

نحن فى روضة وزهر ونهر
مغن قد راسلته الشحا
أنت روح ونحن جسم فإن غ
إن كفا إليك قد كتبتها

ومدام كالشمس من كف بدر
رير فأغنت عن جس عود وزمر
بت فإن القلوب تكوى بحمر
تتهادى ما بين سكر وشكر^(٣)

وفى نفس هذا الموضوع يقول البهاء زهير:

غبت عنى فما الخبر
أنا مالى على الجففا
لا تلم فيك عاشقا

ما كذا بيننا اشتهر
لا ولا البعد مصطبر
رام صبيرا فما قدر

(١) ديوان ابن مطروح (طبع مطبعة الجواب).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) ديوان ابن النبيه ص ٨٩.

حين عرفت لها السهر
ربما أقنع النظر
ك عن الشمس والقمر
لا رسول ولا خبير
ليته جاء واعتذر
لمحيك مفتفر
قك مرأى ومختبر
نزهة السمع والبصر
تفخر الكتب والسير
فيهم الزهر والزهر
بك إن زرتنا أغر
وإن جمل محتقر^(١)

أنكرت مقلتي الكرى
فعمسى منك نظرة
غنيت عين من يرا
أيها المعرض الذى
وجرى منه ما جرى
كل ذنب كرامة
أنا فى مجلس يرو
بين شاد وشادان
وصحاب بذكرهم
وإذا ما تفاوضوا
فتفضل فيومنا
فسرور تغيب عنه

القصة

وفى هذا العصر الذى انتشر فيه فن «خيال الظل»^(٢) ووضعت له قصص يلقيها الخيال ويعرضها بشخص من الجلد، ويؤلفها صناع البلايق بالعامية، نجد بعض الشعراء يروون قصة كاملة فى قصيدة يحكون فيها حادثة بعينها ويلتزمون فيها وحدة الموضوع فى كل القصيدة وتسلسل هذا الموضوع وتطوره، فإذا نحن أمام قصة من الشعر، فيها جميع عناصر القصة القصيرة، فهناك الفكرة وتطورها إلى العقدة ثم حلها، وهناك معالم الشخصية وخصائصها الخلقية وما يتبع ذلك من حالات نفسية، أضف إلى ذلك كله التناول الفنى للحادثة التى يعرضها الشاعر، فكل هذه الأصول الفنية للقصة نجدها فى الشعر المصرى فى العصر الأيوبي، فهاهو الشاعر البهاء زهير يروى قصة تاجر وفد إلى مصر، وكيف خرج منها فهو يقول على لسان هذا التاجر.

وليس حالى بخافى
ومثل ذاك نصافى
وجوه شفاف

دخلت مصر غنيا
عشرون حمل حريير
وجملة من لآل

(١) ديوان البهاء زهير ص ٨٥.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الفن فى سلسلة مقالات بمجلة الإذاعة المصرية سنة ١٩٥٥.

من الملاح النظار
وبالجزيل أكافى
بسالف وسلاف
ولا أزال أصافى
كانوا تمام حرافى
من الجدى والخراف
معى من الأصناف
طراحتى ولحافى
بمصر قبل أنصرافى
من ثروتى وعفافى
جيعان عريان حافى^(١)

ولى ممالك خود
فرحنت أبسط كفى
وصرت أجمع شملى
ولا أزال أواخلى
وصار لى حُرفاء
وكل يوم خوان
فبعنت كل ثمين
استهلك البيع حتى
صرفت ذاك جميعا
وصرت فيها فقيرا
وذا خروجى منها

فالشاعر وهو يروى القصة لم يبتعد عن موضوعها فهو يصف حالة بطل القصة منذ دخل مصر ومعه هذه الأحمال من ألوان الأقمشة والجواهر والماليك، جاء بها يبتغى الغنى والكسب، ولكنه كان مسرفا أشد الإسراف، إذ اصطنع بعض الأصدقاء، وأخذ ينفق عليهم عن سعة فى ولائم يومية حتى أتت على كل أمواله، واضطر إلى أن يبيع طراحته ولحافه، وخرج من مصر وهو «جيعان عريان حافى» فالشاعر هنا قصاص لا شك فى ذلك، وقد نجح فى عرضه للحادثة على هذا النحو الذى رأيناه، كما نجح فى تصوير الحالات النفسية التى تقلب فيها التاجر فى أوقات يسره وفى أوقات عسره، ففى قدومه إلى مصر أخذ يزهو بما معه من بضائع، كما كان يفخر بما ينفقه على إخوانه، وأخيرا صور الشاعر حالته وقد أصبح لا يملك شروى نقير، كل هذه الصور النفسية رسمها الشاعر فى بساطة ودقة.

وهاهو الشاعر ابن مطروح يقص علينا قصة حبيبته التى أخذت تشكو هواها إلى دايتها، وكيف تريد لقاء مهمما وجدت فى ذلك من أهوال، ولكنها تخشى أباه الذى لو عرف قصتها لقتلها، فالشاعر رسم ذلك كله فى هذه المقطوعة فهو يقول:

شكوى تذيب القلوب والمهجا
وما أرى من هواه لى فرجا

سمعتها تشتكى لدايتها
تقول: يا دايتى، بليت به

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٣٣.

ومثل ما بى به ولا عجب
فهل سبيل إلى زيارته
وإن درى والدى بقصتنا
فرحت مما سمعت مبتهجا
هوى بقلبى وقلبه امتزجا
ولو ركبت البحار واللججا
أراق يا دايتى دمي حرجا
كشارب الراح مبهتجا

فهذه المقطوعة القصيرة تعطينا قصة هذه الفتاة الوالهة بحبه، وترسم لنا نفسيتهما القلقة المضطربة بين رغبتهما الملحة فى زيارة حبيبها وبين خوفها من أبيها، ثم نفسية الشاعر المحبوب الذى ابتهج عند سماع الحوار بين حبيبته ودايتها، وتأكده من شعورها نحوه، أليست هذه المقطوعة القصيرة قصة غرام نفسية؟

ولابن مطروح عدة قصص أخرى من هذا اللون الذى نراه فى المقطوعة السابقة، وإذن فنستطيع أن نقول إن فن القصة ظهر فى الشعر المصرى، كما ظهر فى البلايق المصرية وفى النثر الفنى، وسنرى فى حديثنا عن عصر الماليك تطور القصة المصرية فى الشعر.

ابن مطروح ٥٩٢-٦٤٩ هـ

أبو الحسن يحيى بن عيسى بن ابراهيم بن الحسين، لقب بجمال الدين، وعرف بابن مطروح، ولد بأسيوط فى ٨ رجب سنة ٥٩٢ هجرية، وفيها نشأ، ولا ندرى شيئا عن نشأته ولا عن أساتذته، فالمؤرخون أغفلوا الحديث عن هذه الناحية، كما أن ابن مطروح لم يشر إليها فى أشعاره، وكل الذى نعرفه أنه انتقل من أسيوط إلى مدينة قوص لسبب لم يذكره المؤرخون أيضا، ومدينة قوص فى ذلك العصر كانت من أهم المراكز الثقافية والتجارية فى مصر، إذ كانت المركز الرئيسى لقوافل الحج والتجارة بين مصر وبلاد الشرق ولا سيما بعد استيلاء الصليبيين على طريق فلسطين، فحول طريق القوافل إلى مدينة قوص ومنها إلى عيذاب على البحر الأحمر، فيفضل هذه الحالة السياسية التى كانت تسود الشرق الأوسط نمت المدينة وازدهرت وكثر فيها العلماء والفقهاء، وتعددت المدارس، ففي هذه المدينة العامرة بالنشاط الثقافى والاقتصادى عاش ابن مطروح، وتشاء الظروف أن يتقابل هناك بشاب من الشباب الواقفين على المدينة، واتخذوها دار إقامة، وهو البهاء زهير، ولا نستطيع أن نؤكد متى وكيف تمت هذه الصداقة التى استمرت طوال حياتيهما ويخيل إلى أن ابن مطروح أتم دراسته فى قوص وفيها بدأ يصنع الشعر، فمدائحه لمجد الدين بن اللمطى حاكم قوص، وتقلبه مع هذا الأمير بين الرضا والغضب تدل على أنه كان صغير السن، وأنه كان مبتدئا فى مدح الأمراء والحكام، ففي إحدى قصائده يمدح فيها والى قوص يقول بعد المقدمة الغزلية:

تأبى السؤال خلائقي وتخلقى
 قطعت يد مدت إلى مسترزق
 صبرا عليه يعملات الأينق
 فى إثرها عادت بسعى مخفق
 حاولت ذاك ولو بأقصى المشرق
 وبقرب مجد الدين إن لم أصدق
 إن الصعيد بيمن طلعتة سقى
 لسواك ممن قد مضى أو من بقى
 جيشان من رعد وغيث مغدق
 فى غيظ كل منافق متملق
 وحذار من ذا الأفعون المطرق^(١)

قالت سل الأيام قلت أنا امرؤ
 وإذا سألت سألت ربا راحما
 لأكلفن الجرد مالم تستطع
 من كل ضامرة إذا سرت الصبا
 إن لم أنل بالمغرب الأقصى المنى
 لافزت بالمأمول من طلب العلا
 وافى بأسعد ليلة ودليله
 لله آية آية لك لم تكن
 أى الملوك سواك يقدم جيشه
 فليهننى والأولياء قدومه
 كم قلت للأعداء روموا سلمه

يظهر من هذه الأبيات أن الشاعر لم يكن قد اكتمل فى فنه، بل هى محاولة - إن صح هذا التعبير - لمدح الأمير، فمعانيه تافهة، وأسلوبه به ضعف يدل على أنه لا يزال مبتدئا فى هذا الفن بالرغم من أن هذه الأبيات تشعرنا بأنه يحاول تقليد القدماء، والبيت الأول والثانى فى هذه المقطوعة يدلان على أنه لا يزال صغير السن لم يجرب بعد مخالطة الأمراء أو مدحهم، فهما بيتان لا يقولهما إلا شاب حدث لم تصقله الأيام بعد فلم يعرف كيف يخاطب المدوحين، ويظهر أن صغر سنه قد أوقعه مع الأمير فى بعض المآزق بحيث اضطر الأمير إلى تهديده، واضطر هذا الشاب إلى التخاذل والتراجع عن عنجهيته التى رأيناها فى البيتين السابقين فإذا به يبكى ويترامى على أعتاب الأمير يطلب منه العفو والإقالة، فهو يقول:

ومثلك أولى مثلى الصفح والعفوا
 أقالك رب يعلم السر والنجوى
 ومن تاب تمحو الذنوب توبته محوا
 فأبى الذى تأبى واهوى الذى تهوى
 فتجبر لى كسرا وتكشف لى بلوى
 فله من ذا البؤس ثم لك الشكوى

لك الله إن العفو أقرب للتقوى
 أقلنى ما قد كان منى جهالة
 وها أنا من ذنبى الذى كان تائب
 من الآن فاسعى فى تدارك ما مضى
 عسى نظرة لى باصطناعك منعما
 فإبنى فى بؤس بسخطك كارب

(١) ديوان ابن مطروح: طبع الجوائب ص ١٩٩.

وهذى جفونى ما غفت ساعة غفوا
وانى لأرجو الآن منك الرضى الحلوا
ومنك الرضى لازلت فى جنة المأوى
ولا بدع أن عاقبت مثلى ولا غروا
ترى المن أحلى من جنى المن والسلى^(١)

فهذا فؤادى ما يقمر وجيبه
وقد نالنى من سخطك المر ما كفى
فسخطك نسا لا أطيق اصطلاءها
فإن تولنى عفوا فإنك أهله
فلازلت تولنى العفو عن كل هفوة

ولا ندرى عن حياته فى قوص شيئا، ولكن يخيل إلى أن الأمير ابن الملقى عينه فى ديوانه، ثم نرى ابن مطروح بعد ذلك ينتقل إلى القاهرة، ويتصل بالسلطان الملك الصالح حوالى سنة ٦٢٦ هـ.

وكان الشاعر إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين من عمره وكان الملك الصالح فى ذلك الوقت ينوب عن أبيه الملك الكامل فى حكم مصر، وفى هذه السنة ناب الملك الصالح عن أبيه فى حكم بلاد الجزيرة فاصطحب الشاعر معه، ومنذ اتصل الشاعر بالملك الصالح فى هذه الأقاليم بالمشرق اضطر إلى أن يخوض مع مخدومه المعارك الحربية والسياسية لتوسيع رقعة ممتلكات الملك الكامل بحيث أصبح الملك الصالح سيد هذه البلاد جميعا ولكن بعد أن توفى الملك الكامل ٦٣٥ هـ بدأت سلسلة من المشاحنات والخصومات بين ملوك بنى أيوب؛ كان الملك الصالح من ناحية، وأخيه العادل بن الكامل وعمه الصالح اسماعيل وابن عمه الملك الناصر داود بن الأشرف من ناحية أخرى، وكان الخلاف شديدا قاسيا بينهم كما حدثنا به المؤرخون وأطنبوا فيه، فطورا كان يتفق الملك الصالح اسماعيل مع الملك الناصر والملك العادل ضد الصالح أيوب ويهزم الملك الصالح أيوب ويسجن فى الكرك، ثم يتفق مع الملك الناصر داود ضد العادل والصالح اسماعيل فيطلق سراحه ويتمكن من امتلاك مصر سنة ٦٣٧ هـ ومرة ثالثة يعترف الصالح اسماعيل بملك الصالح أيوب لمصر والشام ويحاربان الناصر داود، ثم يعود هؤلاء الملوك مرة أخرى لمحاربة الصالح أيوب بمساعدة الصليبيين... وهكذا كانت أحوال هؤلاء الملوك مضطربة أشد الاضطراب الأمر الذى أدى بالخليفة العباسى فى بغداد إلى أن يبعث بمحى الدين بن الجوزى رسولا من قبله إليهم يدعوهم إلى نبذ الخلاف وإلى وحدة العالم الإسلامى كما كانت فى عهد صلاح الدين ولا سيما أن خطر التتار كان يهدد أبواب البلاد الإسلامية. فكان ابن مطروح فى وسط هذه المعمة لأنه كان مشرفا على جيش الملك الصالح أيوب، فلما وفد ابن الجوزى رسول الخليفة العباسى صحبه ابن مطروح إلى مصر

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠١.

سنة ٦٣٧ هـ غير أنه لم يمكث طويلا في مصر لأنه غادرها مع ابن الجوزى إلى الشام ثم إلى القدس لمقابلة الملك الناصر داود الذى كان قد استولى عليها فمدحه ابن مطروح بقصيدة جاء فيها:

سارت فصارت مثلا سائرا
أن يبعث الله له ناصرا
وناصر طسهرة آخره^(١)

المسجد الأقصى له عادة
إذا غدا للكفر مستوطننا
فناصر طسهرة أولا

ومدحه بمقطوعة أخرى يقول فيها:

عليهم معتمد الجود
بالمملك الناصر داود

ثلاثة ليس لهم رابع
الغيث والبحر وعززهما

وفى سنة ٦٣٩ هـ عاد ابن مطروح إلى مصر فجعله السلطان ناظرا على خزائنه ومازال صاحب حظوة لديه إلى أن تملك الملك الصالح أيوب دمشق سنة ٦٤٣ هـ إذ وجهه الملك على رأس حملة إلى حمص ولكن جاءت الأنباء بعزم الصليبيين على غزو مصر فاستدعى جيش حمص وعاد معه ابن مطروح إلى مصر وظل فى الخدمة بالرغم من غضب الملك عليه لأمرٍ نسبت إليه فاضطر ابن مطروح إلى أن يبعث إلى الملك يعتذر ويعاتب فى الوقت نفسه:

عن عبده يحيى مقالا مقنعا
همم بها سدوا القضاء الأوسعا
رجعت ولم تبلغ ندامهم ضلعا
ونداك قد وسع الخلائق أجمعا
مثلى شهدت بصدق هذا المدعى
خلق خلقت عليه لا متطبعا
وهوى حنيت عليه منى الأضلعا
أجدى من الملاء الكثير وأنفعا
وأشد عارضة وألطف موقعا
لله أدعو خاشعا متضرعا

من مبلغ عنى المماليك الأروعا
يابن الملوك الأكرمين ومن لهم
وإذا النجوم سعت لتدرك مجدهم
أيجوز أن أبقى ببابك ظامنا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح
ومع النصيحة فالتخلق بالوفا
ومحبة لدمى ولحمى ما زجت
ولطالما جربتنى فوجدتنى
وأسد آراء وأثقب فكرة
ولكم ليال بت فى ديجورها

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٨٢.

ورأيت دونك فى الجلالة تبعا
نبد النواة بقول واش قد سعى
أقصى مناهم أن أبىيت مضيعا
لكن أجلك أن يقول فتسمعا
فخسرت دنياى وآخرتى معا
وأحول إذ عهد الشبيبة ودعا^(١)

حتى رأيتك فوق كسرى رفعة
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى
وسمعت فى حقى كلام معاشر
حق العزول بأن يقول فيفتري
إن كنت خنتك ظاهرا أو باطنا
أودكم من عنفوان سبيبتى

وكان مع الملك فى المنصورة أثناء الحملة الصليبية على دمياط، ولكن توفى الملك الصالح فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ فترك ابن مطروح خدمة الدواوين مكرها وعاش فى منزله بعيدا عن أى عمل لمدة عامين ساءت فيهما صحته، وضعف بصره حتى كاد يفقده وساءت حالته المالية، وظل كذلك إلى أن مات فى شعبان سنة ٦٤٩ هـ. وشعر ابن مطروح ضعيف فى جملته ويظهر أن حياته السياسية قد غلبت عليه فلم يتفرغ لفن الشعر بجوده ويتقنه كما كان يفعل مع غيره، ومع ذلك كله فله بعض لمحات نستطيع أن نثبت فنيته فيها فمثلا فى قوله متغزلا:

أو بالغزال وجدته مظلوما
صلوا عليه وسلموا تسليما^(٢)

إن قسته بالبدر ما أنصفته
هذا نبى الحسن جاء فكلكم

ومثل هذه المقطوعة الغزلية التى تحدثنا عنها سابقا والتى مطلعها

واستبدلوا بدل السيوف الأعيانا

هزوا الخدود وأرهفوا سمر القنا

ولا ندرى لماذا لم ينشد ابن مطروح شعرا فى جمال دمشق وغطتها كما فعل غيره من الشعراء الذين أشادوا بها ولكن الظاهر من حياة ابن مطروح أنه لم يكن على وفاق مع الدمشقيين، فلم يتصل بشعرائهم وأدبائهم، ولم يحدثنا عنهم فى ديوانه إلا فى بيتين هما:

وهذه سنة اليهود
شربكم الماء من يزيد^(٣)

تخذتم السبت يوم عيد
وكان يكفيكم ضلالا

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٨٤.

(٢) الديوان ص ٢٠٤.

(٣) ابن مطروح ص ٢٠٥.

فالشاعر يعرض بهم ويتاريخهم في مناصرة الأمويين وخاصة يزيد بن معاوية، ولا شيء غير ذلك عن دمشق التي كان وزيرا فيها، كذلك نقول عن الطبيعة في مصر، فهو لم يتحدث عنها بشيء وكان جمال الطبيعة لم تؤثر فيه.

من ناحية أخرى كان الشاعر في بعض مقطوعاته يميل إلى ناحية الزهد، وكأنه تأثر بالصوفية الذين كثروا في عهده، فهو يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى في خشية ووجل، فمن توسلاته إبان محنته الأخيرة يقول:

ومن بدا من نوره فاحتجب
والمطلب الأسنى وكل الأرب
وهبنى الرحمة فيما تهب
تطفئ عنى لفحات الغضب
عليك ضيفا آخذا بالحسب
مستمسكا منك بأوفى سبب^(١)

يا من علا في ملكه فاقترب
ومن هو القصد لأهل النهى
عودتنى الأنس فلا تنسنى
ونفحة من نفحات الرضى
وقد قدمت اليوم يا سيدى
معتمدا منك على راحم
أو قوله:

وكل خير لديه معهود
بالسن الخلق وهو محمود
ينعشه اليوم فهو مجهود
لا خيبت والكريم مقصود^(٢)

يا من لديه الجميل موجود
وهو على كل شدة ورخا
امنن على عبدك الفقير بما
وقد مددنا إليك أيدينا

ويقول ابن خلكان وكانت خلاله حميدة، جمع بين الفضل والروءة، والأخلاق المرضية، وكان بينى وبينه مودة أكيدة، ومكاتبات في الغيبة، ومجالسات في الحضرة، تجرى فيها مذكرات أدبية لطيفة^(٣). ومدحه الشاعر أبو الحسين الجزار بقصيدة منها:

فاحبس الركب عسى أفضى حقوقه
بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه
مع من أهوى وساعات أنيقه

هو ذا الربع ولى نفس مشوقة
فقبيح بى فى شرع الهوى
لست أنسى فيه ليلات مضت

(١) ديوان ابن مطروح ص ٢١٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢١٢.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٨.

ولئن أضحى مجازا بعدهم
يا صديقي والكريم الحر في
ضع يدا منك على قلبي عسى
فاض دمعي مذ رأى ربع الهوى
تعد اللؤلؤ من أدمعه
قف معي واستوقف الركب فإن
فهي أرض قلما يلحقها
طالما استجلت في أرجائها
يفضح الورد احمرارا خده
فيه الحسن خليق لم يزل

فغرامى فيه مازال حقيقه
مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه
أن تهدي بين جنبى خفوقه
ولكم فاض وقد شام بروقه
فغدا ينثر فى الترب عقيقه
لم يقف فاتركه يمضى وطريقه
آمل والركب لم أعدم لحوقه
من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه
وتود الخمر لو تشبه ريقه
والمعانى بابن مطروح خليقه^(١)



(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٦٠.